النظرية الأخلاقية في القرآن من منظور الدكتور دراز
من قصور التناول الجزئي إلى كفاية التأطير الكلي

د. بدران مسعود بن لحسن *

تمهيد في طرح الإشكال:

يعتبر الدكتور محمد عبد الله دراز أحد علماء المسلمين في العصر الحديث الذين جمعوا بين التكوين الشرعي الأزهري وبين التكوين الغربي في السوربون. لذلك فهو "ابن الأزهر، وابن السوربون" كما وصفه أحد الباحثين. وقد أتاح له تكوينه العميق في كل من الثقافة الاسلامية والثقافة الغربية من أصولهما ومنابعهما الأصلية أن تكون له "رؤية تركيبية تحليلية فريدة"، بعيدا عن السطحية التبسيطية، وعن "سوء الهضم العقلي" الذي أصاب الكثيرين ممن وقفوا عند حدود الثقافة الموروثة الراكدة أو الغريبة الوافدة.

ولعل دراسته في النظامين المعرفيين العربي الاسلامي والغربي جعله على اطلاع كبير على التراث الأخلاقي في كلا الحضارتين، كما مكنه من رؤية تركيبية، ورحابة الأفق، وعمق التحليل، ودقة الاستدلال، وحجاج مقنع.

وتمثل أطروحته للدكتوراه التي أشرف عليه فيها المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، والتي قدمها في النصف الأول من القرن العشرين واحدة من الدراسات النادرة في الفكر الاسلامي الحديث التي حاولت تناول "سؤال الأخلاق" تناولا نقديا تأسيسيا يفسح المجال لبناء نظرية أخلاقية إسلامية من القرآن الكريم، بحيث تكون هذه النظرية هادفة إلى "إبراز الطابع العام للأخلاق التي تستمد من كتاب الله الحكيم، وذلك من الناحيتين النظرية والعملية".

ينطلق فيها دراز من مسلمة مفادها " أن المسلم يجد في القرآن الكريم كل ما يشبع حاجته في مجال الأخلاق سواء من الناحية النظرية أو العملية. بل يمكن القول أن الإنسانية كلها، على مرّ العصور والأجيال، وعلى ما قد ينتابها من تغيرات عميقة في الوجود، سوف تجد دائماً في القرآن الكريم قاعدة تنظم نشاطها الأخلاقي، ووسيلة تحفز جهودها، ومثالاً أعلى تهتدي به".

في ضوء هذا الهدف وهذه المسلمة العامة، يتجه الدكتور دراز إلى العمل على استخراج نظرية عامة للأخلاق القرآنية وفق استراتيجية تقوم على آليتين؛ الأولى هي آلية النقد للتراث الأخلاقي الاسلامي في تنوعه (الفلسفة، والفقه، والكلام، والتصوف..) واليوناني في صياغاته النظرية، وكذلك الغربي الحديث المعاصر له.

* أستاذ مشارك في برنامج مقارنة الأديان، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة. بريد التواصل: bbenlahcene@hbku.edu.qa

أما الآلية الثانية فهي آلية التأسيس من القرآن الكريم لإطار عام للأخلاق، يستجلي النظرية القرآنية في الأخلاق؛ والتي تجمع بين العمل والنظر، أو ما يسمى بالأخلاق العملية (السلوك) والأخلاق النظرية (القيم).

ويصل دراز من نقده لهذه المصادر إلى أنه لم ينهض أحد باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه، ولم يقدم أحد مبادئها، وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه. من أجل بناء علم أخلاق أو نظرية اخلاقية عربية إسلامية كلية تنظر إلى القيم والأخلاق في كونيتها وتربطها بالجانب العملي في سياقاته المختلفة.

الإشكال:

وفي هذا السياق فإن الإشكال الذي تعمل عليه هذه الورقة البحثية هو النظر في البناء النظري للنظرية الأخلاقية القرآنية التي طرحها الدكتور دراز ومدى انتقالها من التناول الجزئي الموروث إلى الطرح الكلي الذي سعى إليه مستفيدا من تطورات علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق في الفكر الغربي الحديث.

وللإجابة عن هذا الإشكال التالية:

1. ما الإشكال المتولد عن التناول التقليدي للأخلاق في سياقها العربي الاسلامي واليوناني؟.
2. ما مفهوم الأخلاق القرآنية الذي طرحه دراز؟
3. إلى أي مدى وظف دراز مفاهيم النظرية الأخلاقية الحديثة في صياغته لنظرية في الأخلاق القرآنية كنوع من المثاقفة الإيجابية مع الفكر الغربي الحديث؟.
4. ما هي الاضافة النوعية التي قدمها دراز للفكر الأخلاقي الحديث في سياقه العربي الاسلامي وفي سياقه العالمي ليمثل إضافة إلى الفكر الأخلاقي الانساني؟.
5. كيف يمكن استثمار اجتهادات دراز وتعميقها لتحقيق نظرة أخلاقية كلية لقضايانا وتجاوز التناول الجزئي للأخلاق في واقعنا؟.

منهج البحث:

طبيعة الورقة الهادفة إلى النظر في المساهمة التنظيرية للدكتور دراز في صياغة نظرية أخلاقية قرآنية، تجعل منها تتبنى المنهج التحليلي المقارن في تناول موضوع البحث. بحيث يتم تحليل مضمون كتاب الدكتور محمد عبد الله دراز: "دستور الأخلاق في القرآن"، ومقارنة أفكاره بالأفكار الأخلاقية والنظريات الأخلاقية في السياق العربي الاسلامي وفي السياق الغربي الحديث.

المبحث الأول: قصور التناول التقليدي للأخلاق

لعلنا في مستهل تناولنا للنظرية الأخلاقية عند الدكتور دراز أن ننظر في نقده لمن سبقه في تناول نظرية القرآن الأخلاقية، أو بعبارة أخرى: ما الإشكال المتولد عن التناول التقليدي للأخلاق في سياقها العربي الاسلامي واليوناني؟.

1. تناول الغربيين الاجتزائي للأخلاق القرآنية

يرى الشيخ محمد عبد الله دراز أن الغربيين في تناولهم لعلم الاخلاق، فإنهم ينظرون نظرة اجتزائية انتقائية أو اختزالية لمساهمة القرآن في بناء النظرية الأخلاقية وفي رسم منهج الأخلاق العملية. ذلك أن "نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام – التي كتبها علماء غربيون- كافية لنلحظ فيها فراغا هائلاً وعميقاً، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني"[1]، وهذا الفراغ كان من الناحية النظرية، ومن ناحية المضمون.

أما في المضمون، فهي بعيدة من المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية، وترجع عيوب المضمون إلى:"ترجمات غير صحيحة وإما إلى تلخيص سيئ، وإما إلى الأمرين معاً، وهو ما نجده واضحاً لدى المستشرق جول لابوم[2]، في كتابه"تحليل آيات القرآن"، باريس 1878، وهو مع ذلك أقل الأعمال التحليلية في هذا المجال بعداً من التمام"[3].

وهذا ما جعل دراز يرى الضرورة المعرفية إلى تناول الموضوع من جديد، ويعالجه بمنهج يتجاوز إخفاقات التناول الاجتزائي الغربي، لتفادي الأخطاء وتصحيحها، وملء هذه الفجوة العلمية في المكتبة الغربية، وتقديم الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية إلى علماء الغرب[4]، وتحقيق التثاقف المعرفي بوجه اكثر اقتداراً.

أ. من الناحية النظرية:

فمن الناحية النظرية، لاحظ دراز وجود فراغ هائل وعميق في مؤلفات علم الأخلاق العام إذ وجد فيها قفزاً من الوثنية الإغريقية إلى أديان اليهودية والمسيحية إلى العصور الأوربية الحديثة مع إغفال ما يمس علم الأخلاق القرآني، أما الدراسات العامة حول الإسلام في القرن التاسع عشر، فقد وجدت فيها محاولات استشراقية لاستخراج المبادئ الأخلاقية من القرآن، لكن إطارها كان محدوداً[5].

حيث "انحصرت كل جهودهم في أن جمّعوا عدداً، قليلاً أو كثيراً، من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة، أو بالسلوك، وترجموها ترجمة حرفية"[6]. ومن أمثال هؤلاء يذكر لنا دراز أول من استهل هذا المجموعة من النصوص المختارة من القرآن، وهو ما قام به المستشرق جارسان دي تاسي[7]، في كتابه "القرآن : مبادئه وواجباته" سنة 1840م، ثم تبعه لمستشرق لوفيفر[8]الذي نشر "محمد: قوانين أخلاقية، ومدنية،

---

[1] دراز، دستور الأخلاق، ص2.

[2] Jules La Beaume

[3] دراز، دستور الأخلاق، ص3.

[4] دراز، دستور الأخلاق، ص4.

[5] عبد الرحمن حللي، دستور الأخلاق فيالقرآن.. بمناسبة مرور نصف قرن على رحيل العلامة الدكتور محمّد عبد الله دراز، أنظر:
http://almultaka.org/site.php?id=596

[6] دراز، دستور الأخلاق، ص3.

[7] Garcin de Tassy

[8] Le Fevre

ودينية" عام 1850م، ثم جاء من بعدهما بارثلمي سانت هيلير في كتابه "محمد والقرآن" الذي نشر سنة 1865م[9].

ب.من ناحية المضمون:

أما من حيث المضمون فهي بعيدة عن المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية[10]، و"مرجعها إما ترجمات غير صحيحة، وإما إلى تلخيص سيء، وإما إلى الأمرين معاً"[11]؛ وهو ما نجده واضحاً لدى المستشرق جول لابوم[12] في كتابه "تحليل آيات القرآن" الذي نشر في باريس عام 1878م. وهو مع ذلك أقل الأعمال التحليلية في هذا المجال بعداً عن التمام[13].

2. **التناول الجزئي للأخلاق من قبل الأخلاقيين المسلمين:**

وينبهنا دراز من جهة أخرى، في بداية كتابه، إلى أنه "يضع قدميه لأول مرة على أرض لم تطأها قدم من قبل"، وفي هذا إشارة إلى أن طريقة تناوله للموضوع غير مسبوقة.

لكنه قبل ان يقدم نظريته في الأخلاق القرآنية، فإنه قام بنوع من التقييم للدراسات السابقة في الموضوع، في السياق العربي الاسلامي، ووصل إلى ملحوظات نقدية ثلاثة؛ اولها يتعلق بمنظور تناول الأخلاق في الفكر الاسلامي، وثانيها الإطار النظري لتناول الأخلاق، وثالثها الأخلاق العملية وكيفية تناولها:

أ. المنظور التلفيقي للبحث الأخلاقي:

يرى دراز أن المكتبة الإسلامية "لم تعرف حتى الآن سوى نوعين من التعاليم الأخلاقية؛ فهي إما نصائح عمليه هدفها تقويم الأخلاق، حين توحي إليهم الاقتناع بالقيمة العليا للفضيلة، وإما وصف لطبيعة النفس وملكاتها، ثم تعريف للفضيلة وتقسيم لها، مرتب في غالب الأمر بحسب النموذج الأفلاطوني، أو الأرسطي، وكثيرا ما ترى المنهجين يتعاقبان في قلم كاتب واحد"[14].

وكأن الكتابة الأخلاقية الاسلامية، تجاذبتها مدرستان، إحداهما جزئية محصورة في النصائح، وليس لها أفق نظري، والأخرى مندرجة تماما في المنظور الفلسفي اليوناني بمدرستيه الأفلاطونية والأرسطية، وأحيانا يكون بدمج لهما في مؤلف واحد. ويذكرنا هذا الجهود الفلسفية التي قام بها الفارابي وابن سينا وغيرهما من تبني المنظور اليوناني والوقوع تحت هيمنته، ومحاولة الإنجاز من خلاله، بإضافات ليس في عمق النسق، ولكن ببعض الاضافات الجزئية لبنائه الفلسفي اليوناني الأصلي.

---

[9] دراز، دستور الأخلاق، ص3.

[10] عبد الرحمن حللي، التأصيل القرآني للمعرفة : قضية الأخلاق نموذجاً، جريدة الحياة، 2008/6/7م الموافق 1429/6/3هـ، عدد 16500، ص16.

[11] دراز، دستور الأخلاق، ص3.

[12] Jules La Beaume

[13] دراز، دستور الأخلاق، ص3.

[14] دراز، دستور الأخلاق، ص4.

ولهذا كانت الأخلاق القرآنية هامشية لا رئيسية، وكانت كتب الأخلاق "كتبا إنسانية محضة، أجهد مؤلفوها انفسهم، فاستودعوها ثمرات تأملاتهم، ودراساتهم الفلسفية، ولم يظهر فيها النص القرآني كلية، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية"[15].

ولعل هذه الملحوظة التي ذكرها دراز في الوقوع في أسر المنظور الفلسفي اليوناني للأخلاق، وهامشية القرآن في الدرس الأخلاقي، أشار إليها إقبال من قبل. فبالنسبة لإقبال، فإن الفكر الاسلامي استفاد من الفلسفة اليونانية باعتبارها قوة ثقافية كبيرة، ولكن المشكلة وقعت حينما هيمن منظور الفلسفة اليونانية على الفكر الاسلامي في تناوله للمسائل العقدية وفي درس القرآن الكريم، حيث وقع تحت أسر عباءة الفكر اليوناني الذي يجنح للتأمل ولا يحتفل بالعمل. يقول إقبال: "إن الفلسفة اليونانية – على ما نعرف جميعا- كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الاسلام، ولكن التدقيق في درس القرآن الكريم، وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسهم التي نشأت ملهمة بالفكر اليوناني، يكشفان عن حقيقة بارزة هي: أن الفلسفة اليونانية مع أنها وسّعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الاسلام غشّت على أبصارهم في فهم القرآن"[16].

ولهذا فإن القرآن لم يكن الركيزة الأساسية في بناء نظرية اخلاقية، بقدر ما كان يستشهد به لدعم الرأي الأخلاقي الذي يذهب إليه المؤلف؛ سواء في ذلك المسلمين او المستشرقين[17].

ويرى إقبال أن هذا الأمر فات على المفكرين والعلماء المسلمين الأوائل ممن افتتن بالفلسفة اليونانية فأبعدتهم عن منطق القرآن. يقول: "وقد فات هذا الأمر المتقدمين من علماء الاسلام الذين عكفوا على درس القرآن بعد أن بهرهم النظر الفلسفي القديم، فقرءوا الكتاب على ضوء الفكر اليوناني"[18].

ولم ينتبهوا لذلك في بداية أمرهم وقضوا دهراً متبعين هذا الاتجاه المعارض في جوهره لروح القرآن، ولهذا يقول إقبال: "ومضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان قبل أن يتبيّن لهم في وضوح غير كاف أن روح القرآن تتعارض في جوهرها مع تعاليم الفلسفة القديمة. وقد نجم عن إدراكهم هذا نوع من الثورة الفكرية لم يدرَك أثرها الكامل إلى يومنا هذا"[19].

ب. تناثر التناول الأخلاقي في بحر من الموضوعات الأخرى:

أما الأمر الثاني الذي لاحظه دراز في البحث الأخلاقي الإسلامي فهو أنه متناثر غير مجموع في نظرية واحدة تتناول الجانب النظري والعملي من الأخلاق، فبالرغم من أنه لم ينكر أن فقهاء المسلمين قد بحثوا في مقاييس الخير والشر، وأن عددا من رجال الشرع قد تكلموا في شروط المسؤولية، وأن بعض الأخلاقيين قد ناقشوا جدوى الجهد الانساني، وضرورة النية الطيبة، ولكن هذه الجهود بالرغم من قيمتها،

---

[15] دراز، دستور الأخلاق، ص4.

[16] إقبال، تجديد التفكير الديني، ص10.

[17] دراز، دستور الأخلاق، ص4.

[18] إقبال، تجديد التفكير الديني، ص11.

[19] إقبال، تجديد التفكير الديني، ص11.

فإنها ظلت مبعثرة في بطون الكتب، التي لم تقتصر على معالجة الأخلاق، بل غلبت عليها آراء أخرى في الفقه والشريعة وعلوم الدين واللغة. إضافة إلى أن تلك الكتابات كانت تعتمد على الرأي الشخصي، أو على اتجاه مدرسة فكرية ما، ولم تكن تستعين بالآيات القرآنية إلا من قبيل الاستشهاد والتأييد من الناحية النظرية ومن الناحية العملية.

وهذا طبعا في المجال النظري، فإن "العلماء المسلمين قد أعملوا قرائحهم منذ عهد مبكر في هذا الموضوع"، فنجد المتكلمين، والأصوليين والفقهاء، والأخلاقيون، والصوفية؛ كل من جهته تناول جانبا من جوانب الأخلاق. لكن مشكلة هذه الأفكار الأخلاقية أنها "بقيت متناثرة في مختلف المذاهب التي تمس الأخلاقية من قريب أو من بعيد"[20].

وهذا يعني أن هذه الأبحاث والأفكار لم تكن مقاربات أخلاقية بالمعنى الدقيق "الخاص" وإن انطوت على تناول أخلاقي، لأنها أفكار وأبحاث تلامس البحث الأخلاقي أو النظرية الأخلاقية بطريقة غير مباشرة، عند البحث المذهبي أو الشخصي لتأييد مذهب أو فكرة أو اتجاه، ولم تعن بصياغة نظرية أخلاقية متكاملة جوهرها القرآن. والقرآن لا يرد ذكره فيها إلا بصفة مكملة، شاهداً أو برهاناً على فكرة أو أخرى سبق الأخذ بها[21]. وهذا ما أبقى تناول الأخلاق في فكرنا الإسلامي القديم تناولاً جزئيا غير متسم بالوحدة الموضوعية والمصدرية.

ت. عدم وجود وحدة موضوعية ونظرية:

كما يرى دراز أننا، من الناحية العملية، نجد جهودا إسلامية لبناء نظرية أخلاقية إسلامية تجمع بين الجانب النظري للأخلاق والجانب العملي، غير أن هذه الجهود لم تخرج عن كونها تجميعا لعناصر، فلم تكتمل، ولم تبلغ مداها، ولم يبن عليها.

ويضرب دراز لذلك أمثلة بالجهود التي بذلها رواد مختلف حقول المعرفة الاسلامية:

ت- 1. فالغزالي، مثلاً، حاول في كتابه (جواهر القرآن) أن يحلل جوهر القرآن، وأن يرده إلى عنصرين أساسيين أحدهما يتصل بالمعرفة والآخر بالسلوك، لكن هذا التصنيف لم يعقبه ما يبنى عليه، كما أنه صنفه على ترتيب السور، فكانت مجرد جمع لمتفرقات لا تربط بينها قرابة، ولا يظهر فيها تسلسل للأفكار، ففقدت الوحدة الأولى لكل سورة، ولم توجد وحدة منطقية تربط بين الأجزاء المختارة، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم. بالرغم من أن دراز يقدر وجود قاعدة واضحة استند عليها عمل الغزالي في جمعه للآيات المتعلقة بالجانب العملي من الأخلاق[22].

ت- 2. أما المفسرون أمثال القاضي الجصاص، والقاضي أبو بكر بن العربي، وملا أحمد جيون الهندي وغيرهم، فلم تحظ الأخلاق العملية عندهم بتأليف متماسك. بل "نجد النصوص القرآنية ذات المغزى

---

[20] دراز، دستور الأخلاق، ص5.

[21] دراز، دستور الأخلاق، ص5.

[22] دراز، دستور الأخلاق، ص6.

الأخلاقي، وقد غرقت بطريقة غامضة وسط نصوص تتصل بموضوعات فقهية، أو كلامية، أو كونية، أو غيرها ... بل منها ما لا يتصل النص بها إلا من بعيد"[23].

ولهذا فإن دراز يصدر حكمه النقدي الصارم بأن "جميع المؤلفين، بما فيهم الغزالي، وقد جمعوا بطريقتهم الآيات القرآنية بترتيب السور- جعلوا مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرقة، لا تربط بينها روح قرابة، ولا يظهر فيه أي تسلسل للأفكار"[24]. فهناك مشكلة جمع مواد متفرقة، وهناك مشكلة غياب التسلسل والبناء المنطقي للأفكار.

وهذا ما جعل عملية إكمال البناء النظري الأخلاقي صعباً، فعندما "فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية، تربط بين الأجزاء المختارة، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم"[25].

وبالرغم من وجود جهد لبناء نظام منطقي عند بعض علماء الشيعة أمثال أحمد بن محمد الأردبيلي (ت993هـ) وأحمد بن إسماعيل الجزائر النجفي (ت 1150هـ)، غير أن عملهما كان بمثابة فهرس لنصوص القرآن المتعلقة بالفقه الاسلامي، لا يعالجان الأوامر الأخلاقية إلا نادراً[26].

3. خلاصة العنصر الأول:

إن نقد دراز لكل من التناول الغربي في أنه اجتزائي انتقائي متحيز، والتناول الاسلامي في انه جزئي متناثر يفتقد للوحدة الموضوعية والنظرية، جعله يرى أنه إلى وقته لم يسع أحد إلى صياغة نظرية متكاملة للأخلاق القرآنية، أو بعبارة أخرى أنه لم يسع أحد "إلى استخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه". فلم يقدم أحد "مبادئها" ولا "قواعدها" في صورة بناء نظري متكامل متماسك منطقيا، ومستقل عن بقية حقول المعرفة الأخرى القريبة او البعيدة عنه. وهذه هي المهمة التي رأى انه يسعى لها[27].

المبحث الثاني: مفهوم وأسس نظرية الأخلاق القرآنية عند دراز

بعد أن تقدم في المبحث السابق النقد الذي قدمه دراز للتناول الجزئي والاجتزائي للأخلاق القرآنية، يتجه في هذا المبحث إلى اكتشاف وصياغة النظرية الأخلاقية القرآنية صياغة ترفعها إلى التناول الكلي وتخرجها من قصور التناول الجزئي.

ففي نقده للتراث الاسلامي والغربي في مقاربة النظرية الأخلاقية في القرآن يصل إلى أنه لم ينهض أحد باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه، ولم يقدم أحد مبادئها وقواعدها في صورة

---

[23] دراز، دستور الأخلاق، ص6-7.

[24] دراز، دستور الأخلاق، ص7.

[25] دراز، دستور الأخلاق، ص7.

[26] دراز، دستور الأخلاق، ص7-8.

[27] دراز، دستور الأخلاق، ص8.

بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه[28]، وأعلن أن هدفه الرئيس في أطروحته إبراز الطابع العام للأخلاق التي تستمد من القرآن من الناحيتين النظرية والعملية، محاولاً سدّ ثغرة في مؤلفات علم الأخلاق العام، فكان هدفه صريحاً "ملء هذه الفجوة في المكتبات الأوروبية، وحتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية، وذلكم في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا"[29].

ولذلك كان السؤال الجوهري لدراز في أطروحته هو: كيف يصور القرآن عناصر الحياة الأخلاقية؟وما هي أسس النظرية الأخلاقية القرآنية؟

ولتحقيق ذلك فإن دراز في مقدمة أطروحته، يؤكد أنه يسعى إلى اكتشاف واستخراج "القانون الأخلاقي" في فرعيه؛ "النظرية والتطبيق"، من خلال دراسته "للنص القرآني"[30].وهذا يتطلب دراسة القرآن واستخراج ذلك البناء الأخلاقي المتكامل نظريا وعمليا.

ويبدأ دراز بالتأكيد على أن العنصر الأخلاقي أو عنصر الخير في القرآن مكمل لجانبي المعرفة والاعتقاد. حيث يؤكد أن "النفس الإنسانية لا تتغذى بالحقائق النظرية وحدها. فبجانب حاجة الإنسان إلى المعرفة والاعتقاد، يحتاج في إلحاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاطه في كل لحظة في حياته، سواء في تصرفاته مع نفسه أو في علاقاته مع غيره أو مع خالقه"[31]. فلا يكفي ليكون الانسان مؤمنا حقيقيا أن يؤمن إيمانا عميقا بالحقائق المنزلة بل عليه أن يعبد الله ويفعل الخير... ولهذا بلغت أهمية الجانب العملي في القرآن، أنه تكرر ذكره بصراحة، كشرط لا غنى عنه للفلاح والسعادة في الآخرة[32].

والقرآن باعتباره كتاب هداية، فإنه شامل للجانبين، وله في كلا الأمرين ما يجعلنا نستخلص منه "القانون الأخلاقي" أو النظرية الأخلاقية التي تحكم الجانب النظري والعملي؛ لأنه جاء لهداية الإنسان من خلال تقديم رؤية توحدية للعالم تبين سبيل الحق للانسان، وكذلك تقديم منهج عملي لكيفية تحقيق تلك الرؤية في الواقع لترسم للانسان طريق الخير.

لأن النظرية الأخلاقية القرآنية في نظر دراز "تركيب لتراكيب، فهي لا تلبي كل المطالب الشرعية، والأخلاقية، والاجتماعية، والدينية، فحسب، ولكن نجدها، في كل خطوة، وقد تغلغل فيها بعمق روح التوفيق بين شتى النزعات؛ فهي متحررة ونظامية، عقلية وصوفية، لينة وصلبة، واقعية ومثالية، محافظة وتقدمية، كل ذلك في آن"[33].

ومن خلال تحليل كتاب "دستور الأخلاق" لدراز، يمكن أن نميز ذلك الجهد الذي أنجزه في تحديد ميزات الأخلاق العملية القرآنية، وفي الأسس النظرية للأخلاق القرآنية.

---

[28] حللي، التأصيل القرآني للمعرفة، مرجع سابق،ص16.

[29] دراز، دستور الأخلاق، ص4.

[30] دراز، دستور الأخلاق، ص8.

[31] محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، القاهرة، مؤسسة اقرأ، 2014م، ص83.

[32] دراز، المصدر نفسه، ص83-84.

[33] دراز، دستور الأخلاق، ص 686.

1. الأخلاق العملية:

يرى دراز أن الخلاق العملية تستجيب لمبدأ "حاجتنا إلى أن نرى الفضيلة أعظم من حاجتنا إلى تعريفها"، فهي "تجيبنا عن "ماذا يجب أن أعمل؟" .. ذلكم هو أعم الاسئلة وأشدها إلحاحاً، إنه الغذاء اليومي للنفس الإنسانية". لأنه يرى انه بعد أن "كشف في القرآن عن الأساس النظري، وعن المبادئ العامة للأخلاق" لا ينبغي أن "يعرض عن مشاهدة الآثار العظيمة الرائعة للأخلاق التطبيقية، التي قدمها لنا هذا القرآن"[34].

1. 1. ميزات الأخلاق العملية في القرآن:

كما ذكرنا، فإن دراز يميز ابتداء بين فرعين لما يسميه "القانون الأخلاقي" في القرآن، أو ما يمكن تسميته علم الأخلاق، وهما الأخلاق النظرية والأخلاق العملية. وفي الأخلاق العملية عمل دراز على استخلاص نصوص القرآن ذات الصلة بالموضوع، لكنه لم يلتزم أن يستوعبها إنما يكتفي بما يدل على القواعد المختلفة للسلوك، مع تجنب التكرار. كما اعتمد النظام المنطقي في التصنيف بدلاً من ترتيب السور أو الترتيب الأبجدي، بحسب العلاقة التي سيقت القاعدة لتنظيمها[35]. ورأى أن القرآن في هذا الجانب (العملي) له ميزات ثلاث؛ الامتداد والتكامل والإكمال:

أ. **الامتداد (التصديق والهيمنة)**: فقد تميز القرآن بالامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، بعد أن ظل متفرقا في تراث السابقين. فالقرآن من حيث كونه حافظا لما سبقه واستمرارا له قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، وهو الذي ظل متفرقا في تعاليم القديسين والحكماء، من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض زمانا ومكانا، وربما لم يترك بعضهم أثرا من بعده يحفظ تعاليمه. ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن وإن لم تكن أثمن سماته[36].

ب. **التكامل (تنوع في وحدة)**: تميز القرآن أيضاً بطريقته المتميزة في تقديم الدروس المختلفة عن الماضين، بحيث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الفصام، ويسوقها على اختلافاها في إطار من الاتفاق التام. نازعا عن الشرائع السابقة مظاهر الإفراط والتفريط، وأقامها على التوازن، ووجها في اتجاه واحد، وبث فيها روحه التوحيدية.وذلك لأنه بدأ بأن نزع عن الشرائع السابقة كل ما كان في ظاهر الأمر إفراطا أو تفريطا، وبعد أن حقق وضع التعادل في ميزانها، دفعها جميعها في اتجاه واحد، ثم نفخ فيها من روح واحدة بحيث صار حقا أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الأخلاق[37].

---

[34] دراز، دستور الأخلاق، ص 687.

[35] حللي، التأصيل القرآني للمعرفة، مرجع سابق،ص16.

[36] دراز، دستور الأخلاق، ص8.

[37] دراز، دستور الأخلاق، ص9.

ت. **الإكمال**: فالأخلاق القرآنية رفعت ذلك البناء المقدس وأكملت بناءه. يقول دراز: "وأعجب من ذلك وأعظم أصالة جانبه الخلاق، فليس يكفي في الواقع لكي نصف أخلاق القرآن أن نقول، إنها حفظت تراث الأسلاف ودعمته، وأنها وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلاقهم، بل ينبغي أن نضيف: أن الأخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس، وجملته، حين ضمت إليه فصولا كاملة الجدة، رائعة التقدم، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقي"[38].

1. 2. منظومة الأخلاق العملية:

في الفصول الخمسة الأخيرة من الكتاب خصص دراز كتابه لتناول منظومة الأخلاق العملية، وهي: الأخلاق الفردية، الأخلاق الأسرية، الأخلاق الاجتماعية، أخلاق الدولة، الأخلاق الدينية. ثم ملحقا بأمهات الفضائل الإسلامية من خلال نصوص من القرآن[39].

وهي بحسب دراز مهمة جدا، لأننا سوف نرى فيها "كيف أن نشاطنا في كل ميادين الحياة، يجد فيها طريقه مرسوما"[40]. ولهذا اكتفى فيها من الناحية المنهجية بإيراد النصوص القرآنية الدالة على ذلك مرتبة منهجيا، ومقسمة إلى عناوين فرعية، تبعا للمجالات الخمسة المذكورة آنفا[41]، حتى تتبين معالم هذه الأخلاق من خلال القرآن والقرآن وحده، فيكون القرآن فيها مركزيا، وليس هامشيا أو للتبرير، كما انتقد هو نفسه من سبقه، ممن تناول الاخلاق ثم لجأ إلى القرآن هامشا ملحقا، أو نصا تبريريا.

2. الأخلاق النظرية القرآنية:

في الجانب النظري، حاول دراز أن يشيد البناء النظري الأخلاقي في القرآن؛ متبعا في ذلك وضع كل مسألة في المصطلحات التي تصاغ بها لدى الأخلاقيين المحدثين، واتخذ من القرآن نقطة انطلاق للإجابة عن كل مسألة، وبالرجوع المباشر إلى النص. وقد اشار إلى أنه لاقى صعوبة كون النصوص المتعلقة بالنظرية الأخلاقية ليست بالكثرة والوضوح اللذين تمتاز بهما الأحكام العملية[42].

وقسم دراز دراسته للأخلاق النظرية إلى خمسة فصول، هي: الإلزام، المسؤولية، الجزاء، النية والدوافع، الجهد. وهي تمثل أسس النظرية الأخلاقية القرآنية مصاغة من حيث المصطلح بلغة علم الأخلاق الحديث، ومن حيث المضمون ضمنها الدلالات القرآنية.

وهي في عناوينها مصطلحات حديثة - كما يشير حللي- درس من خلالها النص القرآني باحثاً عن سمات الواجب، وعن طبيعة السلطة التي ينبعث منها الإلزام أو التكليف، وعن درجة المسؤولية الإنسانية وشروطها، وعن طبيعة الجهد المطلوب للعمل الأخلاقي، والمبدأ الأسمى الذي يجب أن يحفز الإرادة على العمل، فاستخلص صيغاً تجيب عن سؤاله الجوهري: كيف يصور القرآن عناصر الحياة الأخلاقية؟[43].

---

[38] دراز، دستور الأخلاق، ص9؛ دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص99-100.

[39] دراز، دستور الأخلاق، ص 686- 778.

[40] المصدر نفسه، ص 688.

[41] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[42] حللي، التأصيل القرآني للمعرفة، مرجع سابق،ص16.

[43] المرجع نفسه.

وإجابة عن هذا السؤال فإن دراز، مستعملا مصطلحات البحث الأخلاقي الغربي الحديث، رأى أن الجانب النظري من الاخلاق يقوم على الأسس التالية:

أ. الإلزام:

أول أسس الأخلاق النظرية هو "الإلزام". يقول دراز: "يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم –في نهاية الأمر- على فكرة الإلزام، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته، وفناء ماهيتها، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسؤولية، وإذا عدمت المسؤولية فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضا، وطبقا لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي"[44].

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم فإننا سنجده كتاب إلزام وتكليف، لما فيه من أوامر ونواهي كثيرة. قال تعالى: [فاعبد الله مخلصا له الدين] (الزمر: 2)، وقال تعالى: [إنّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري] (طه: 13)، وقوله تعالى: [يأيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون] (البقرة: 21)، وقوله تعالى: [يأيها الذين ءامنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل] (النساء:29)، وآيات غيرها كثيرة مبثوثة في القرآن الكريم.

وهذا يدلنا على أن البناء الأخلاقي في القرآن يقوم على فكرة الواجب، "ففي نظر هذه الأخلاق ليست اللذة، ولا المنفعة، ولا السعادة، ولا الكمال، ليست هذه كلها بقادرة في ذاتها أن تنشئ هذا المبدأ (التوحيد)، وكل ذلك يجب أن يكون خاضعا لسلطان الواجب بأقدس معاني الكلمة وأكثرها واقعية، وأسماها درجة"[45].

بل أن ما يميز الواجب في الأخلاق القرآنية النظرية أنها تقوم على أساس الاختيار الحر. فهذا الواجب يكلفنا، ولكنه لا يقهرنا ماديا، وإنه يدع لنا أولاً إمكان مراعاته أو مخالفته. وتلك هي القاعدة الأصلية التي لا يفتأ القرآن يعلنها، سواء فيما يتعلق بواجب الإيمان، أو بواجب الفضيلة العملية، واقرأ إن شئت هذه الآيات الكريمات: [ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا] (النساء: 79)، و(لا إكراه في الدين) (البقرة: 255). وهكذا يتمثل سلطان الواجب بطابعه الخاص الأصيل، فهو لا يقهر الجوارح، ولا يكره المدارك[46].

فالواجب القرآني لا يمكن أن يصبح إلينا تكليفا إلا برضانا، لذا فالواجب الذي يدعو إليه القرآن ليس واجبا قاهرا، بل هو واجب مرن يستحضر ظروف المكلفين وطاقاتهم [لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) (البقرة:

---

[44] دراز، دستور الأخلاق، ص21.

[45] دراز، دستور الأخلاق، ص681.

[46] المصدر نفسه، ص21 وما بعدها.

286)، [ولا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها] (الطلاق: 7)، كما يستحضر الغايات الحميدة التي تعود بالنفع على الفرد والجماعة[47].

ب. المسؤولية :

الأساس الثاني الذي تقوم عليه الأخلاق هو عنصر المسؤولية، وهذا لعنصر شديد الارتباط بعنصر الالزام، وبعنصر آخر ياتي بعده هو الجزاء. يقول دراز: "يرتبط بفكرة الإلزام، ناتجان يستلزم احدهما الآخر بدوره، ويؤيده، ويدعمه، هما: فكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء .. والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة يأخذ بعضها بحجر بعض، ولا تقبل الانفصام، فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الأخريان على إثرها؛ وإذا اختفت، ذهبتا على الفور في أعقابها. فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود إلزام بلا فرد مُلزَم، وليس بأقل استحالة من ذلك أن نفترض كائنا ملزما ومسئولا، بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في "جزاء" مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها"[48].

ذلك أن المسؤولية الانسانية "التي إن لم تفترض سلفاً فكرة إلزام صارم، فعلى الأقل: الفكرة المعادلة لمثل أعلى، اصطلح عليه مقدما، بحيث يرى الانسان أنه مسؤول عنه أمام نفسه"[49].

إن المسؤولية التي هي أحد أسس الأخلاق النظرية القرآنية كما يقول دراز، أساس مهم لا تقوم الأخلاق بدونه، لكنه لم يكتف بتحديد مفهوم المسؤولية، بدلالتها العامة والخاصة، ولكنه أيضا بحث في شروطها من الجانب الأخلاقي، والديني، والاجتماعي. وإن القرآن ليذكر هذه الثلاثة مجتمعة في هذا النظام الأخلاقي في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: [يأيها الذين ءامنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون] (الأنفال: 27). كما أنه بحث في صلة المسؤولية بالإمكان والضرورة[50].

بقدر إمكان الإنسان وبقدر حريته تكون مسؤوليته، ومن ثم فالشروط الضرورية والكافية لمسؤوليتنا أمام الله، وأمام أنفسنا هي: أن يكون العمل شخصيا، إراديا، ثم أداؤه بحرية (دون إكراه) وأن نكون على وعي كامل، وعلى معرفة بالشرع أو القانون، ولذا فإن المبدأ القرآني للمسؤولية هو مبدأ فردي، يستبعد كل مسؤولية موروثة، أو جماعية بالمعنى الحقيقي للكلمة.أي أن من شروط المسؤولية الدينية والأخلاقية الطابع الشخصي للمسؤولية، إذ أنها ليست موروثة[51].

يضاف إلى شرط "الشخصية" في المسؤولية شرط آخر للمسؤولية الأخلاقية، هذا الشرط هو "القانونية". "فالقرآن يعلمنا أن أحداً لن يحاسب على الإعاله دون ان يكون قد علم مسبقاً بأحكامها ... وهذا الإعلام يأتي من طريقين مختلفين: داخلية، وخارجية، فقواعد القانون الأخلاقي في أكثر صورها

---

[47] محمد الناصري، "أسس النظرية الأخلاقية ومعاييرها من منظور القرآن الكريم"، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، العددان 32-33، رمضان 1431هـ/ أغسطس 2010م، ص97.

[48] دراز، دستور الأخلاق، ص 136.

[49] المصدر نفسه، ص137.

[50] المصدر نفسه، ص 137-141.

[51] المصدر نفسه، ص136.

شمولاً مسجلة بشكل ما في أنفسنا، وليس علينا، لكي ندرك مغزاها، سوى أن نستخدم قدراتنا وملكاتنا الفطرية: فنستشير عقلنا، ونستبطن قلبنا، أو نتبع غرائزنا الخيرة. ولما كانت معرفة هذا القانون الفطري في وسع كل إنسان، على تفاوت بين الأفراد، فإن هذه المعرفة تكفي قطعا لتأكيد مسؤوليتنا نحو أنفسنا.."[52]. وواضح أن دراز هنا بالرغم من أنه أميل إلى رأي المعتزلة منه إلى المدارس السائدة لدى أهل السنة، فإنه يرى أن هناك قانون الفطرة، وهناك قانون التشريع، حتى تتحقق المسؤولية كاملة.

ت. الجزاء:

الأساس الثالث للأخلاق النظرية هو الجزاء. وهو الجزء المكمل للإلزام وللمسؤولية. "فالقانون (الأخلاقي) يبدأ بأن يوجه دعوته إلى إرادتنا الطيبة: فهو "يلزمنا" بأن نستجيب لتلك الدعوة، وبعد ذلك، وبمجرد ما نجيب بكلمة (نعم) أو (لا)- نتحمل بذلك "مسؤوليتنا"، وأخيرا، وعلى إثر هذه الاستجابة يُقوّم القانون موقفنا حياله، فهو يجازيه"[53].

والجزاء لا يقل أهمية عن العنصرين السابقين، وله الدور الكبير في دفع الإنسان نحو الالتزام بالأخلاق الحسنة؛ إذ أن القانون الأخلاقي لابد له من محرك ينظم العلاقات الأخلاقية ويضمن تحقيق هذا القانون فكان الجزاء هو ذلك المحرك؛ حيث إنه رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون[54].

إن القانون الأخلاقي مطلب تطلبه أنفسنا، ويفرضه الضمير الاجتماعي، وهو أمر مقدس أيضاً. ومن هنا كان هذا الشكل المثلث للمسؤولية، ومن هنا كان للجزاء ثلاثة ميادين؛ الجزاء الأخلاقي، والجزاء القانوني، والجزاء الإلهي[55].

ولهذا فإن "التشريع القرآني في الجزاء الأخلاقي، والجزاء الشرعي، وعلى الرغم من اختلاف طبيعتهما، وتعارض مجالات تاثيرها ومناهجهما، حيث يؤثر أحدهما مباشرة على النفس الانسانية ويستهدف المطلق، على حين لا يبلغ الآخر سوى الحواس الظاهرة، ولا يرى أمامه سوى النظام الاجتماعي. على الرغم من هذا كله، فإن بين نوعي الجزاء اللذيين درسناهما آنفاً حظا مشتركاً، هو أنهما ينتميان إلى مجال الواقع، وأنهما يمارسان في هذه الدنيا"[56].ولهذا فإن القرآن يضيف الجزاء الإلهي بقسميه؛ الدنيوي والأخروي.

---

[52] دراز، دستور الأخلاق، ص163-164.

[53] المصدر نفسه، ص245.

[54] الناصري، أسس النظرية الأخلاقية ومعاييرها من منظور القرآن الكريم،ص99.

[55] دراز، دستور الأخلاق، ص245.

[56] المصدر نفسه، 275-276.

ولذلك فإن الجزاء في النظرية الأخلاق القرآنية يستهدف النفس بكل قواها وفي كل أعماقها، ولأنها تدعو جميع الناس، في جميع الطبقات، ومن جميع درجات العقل، وتضع الإنسان أمام مسؤولياته في إدراك الفرق الكائن بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم، وبين الخير والشر[57].

ث. النية والدوافع

بعد مناقشته للمصطلحات التي يطلقها الفلاسفة على النية في البحث الأخلاقي، فإن دراز يصل، بعد تحليل للفعل الأخلاقي، إلى أن أي قرار عادي يتخذ بعد تأمل كاف، لابد للإرادة من نظرتين: إحداهما تنصب على العمل، والأخرى على الغاية ... وهاتان النظرتان للإرادة هما موضوعان مختلفان من موضوعات الدارسة في العلم"[58]، وإذا سألنا دراز عن سبب هذا التفريق بين الارادتين، نجد أنه يرى أن "على حين أن النية الغائية يكثر تناولها بخاصة لدى الأخلاقيين، نجد أن علماء النفس والقضاة مشغولون أكثر بدراسة النية بمعناها العام، والموضوعي بعامة". ولهذا ففي رأيه، فإن هناك نوعان من النية سماهما: "النية النفسية" و"النية الأخلاقية"؛ لكنه يرى "النية الفسية" يحتاجها الفعل ابتداء، أما "النية الأخلاقية" فهي التي تحدد قصدية ودوافع الفعل. ولهذا اختار لهما في نظريته الأخلاقية مسمى "النية والدوافع"، لأن كلا العنصرين مهمين في الفعل الأخلاقي حسب النظرية الأخلاقية القرآنية[59].

وعنصر النية والدوافع، هو جوهر الأخلاق القرآنية، ويحتل كل الضمير الأخلاقي القرآني؛ إذ يرتبط بجانب القصد ودافع الإنسان للعمل. ذلك أنه لتحمل المسؤولية ينبغي توفر العنصر الجوهري في العمل، [لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ] (البقرة:225)، فـ"النية شرط ضروري للأخلاقية، وهي على ذلك شرط للمسؤولية، ولكنها ليست بأي حال شرطاً كافياً لهذه أو تلك"[60].

ومن ثم جاء التأكيد عليه في العديد من الآيات القرآنية: [ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم] (الشعراء: 87-89). "هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ، من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب" (ق: 32-33)، ولهذا يؤكد دراز أنه "من الناحية الأخلاقية لا يمكننا أن ندخل في باب الأخلاق أي عمل إذا لم يكن شعورياً وإرادياً وانعقدت عليه النية في آن واحد"[61].

لأن غياب النية قد يحقق الشرط القانوني لكنه لا يحقق الشرط الأخلاقي، ففي القانون تهم الواقعة المادية أكثر من النوايا والدوافع، أما من الناحية الأخلاقية فإن الفعل لا يكون أخلاقيا إلا إذا كان نابعا من الداخل، إلا إذا كان نابعا من نية ودافع داخلي أي ذلك الشعور النفسي وحضور الذهن الذي يحدد القصد. لهذا فإن القرآن يتطلب منا الشعور النفسي وحضور الذهن فيما نقول ونفعل، "[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ] (النساء:43)، كما يتطلب منا الضمير الأخلاقي

---

[57] الناصري، مرجع سابق، ص100.

[58] دراز، دستور الأخلاق، ص422.

[59] دراز، دستور الأخلاق، ص422-423.

[60] دراز، دستور الأخلاق، ص180؛ حللي، مرجع سابق.

[61] دراز، دستور الأخلاق، ص429.

رضا القلب وتلقائية الفعل "وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ] (التوبة: 54).

والآيات القرآنية كثيرة في ذلك، ولعل الحديث الوارد في البخاري عن النية يلخص جوهر الفكرة، فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.."[62]، وهي المقولة النبوية/ الحديث النبوي الأكثر وضوحا واستيعابا من ترجمتها بقولهم "أن الأعمال لا قيمة لها إلا بنواياها"[63]، والحقيقة أنها تقول لنا: "أن الأعمال لا توجد (أخلاقياً) إلا بالنوايا"[64]. ولعل المقولة النبوية السابقة يؤيدها كذلك حديث "... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[65].

ولكن يبدو أن دراز شعر بأن مفهوم "النية" في السياق الذي بينه القرآن وسنة النبي ﷺ، قد يساء فهمه، فرأى أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التحليل، ليبين أن النية تتطلب ذلك الشعور النفسي ولكن يضاف إليها العلم لا الجهل.

ففي نظر دراز فإن النبي (ρ)لم يقصد بقوله "إنما الأعمال بالنيات"، أن الأعمال لا تُقوّم، ولا توجد إلا بالنيات فحسب، بل قال أيضاً عن عائشة رضي الله عنها: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ"[66]. ويعلق دراز بقوله: "أليس هذا هو أفضل برهان على أن المسلك الحسن لا ينحصر في حسن النية وحده، ولا في دقة العمل وحدها، بل في مجموع من الشكل، والمادة، بحيث لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر"[67].

بل أن المقولة الكاملة عن الواجب في الحديث المشهور "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[68].فإذا كان العمل بلا نية كان باطلاً أخلاقياً، وإن حضر العمل مع النية وكانت سيئة كان عملاً لا أخلاقياً، وإن لم يطابق العمل النية كان انحرافاً، أما إذا وجدت النية من غير عمل فإن للنية دائماً أجرها، ولكنها كلما اقتربت من العمل غنيت بالقيم، بحيث لا تبلغ قيمتها إلا في العمل التام. فإذا تطابق العمل والنية مع حضورهما كانت (الأخلاقية الكاملة) مع أفضلية النية[69].

---

[62] محمد ابن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1، (دمشق: دار ابن كثير، 1423هـ/2003م)، حديث رقم1، ص7.

[63] دراز، دستور الأخلاق، ص431.

[64] دراز، دستور الأخلاق، ص431.

[65] البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم 52، ص 23-24.

[66] البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم 2697 ص 659.

[67] دراز، دستور الأخلاق، ص431.

[68] مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ط1، (الرياض: دار طيبة، 1427هـ/2006م)، حديث رقم 2564، ص 1193.

[69] دراز، دستور الأخلاق، ص462-462.

ج. الجهد:

إن حديث دراز عن النية بعنصريها المتميزين (النية والقصد) جعله ينتقل إلى شرط آخر أو عنصر آخر شديد الصلة بالبناء الأخلاقي في النظرية القرآنية للأخلاق، هذا العنصر هو عنصر "العمل"، باعتباره العنصر المهم الآخر في "معركة الفضيلة". لأن المدد الوحيد الذي في يد الانسان ليحقق به غاياته، وواجبه الوحيد في الوقت نفسه، ان يستعمل قواه المادية والمعنوية[70].

وهذا يجعلنا ننظر إلى أن الانسان تنطوي نفسه على نقص ابتدائي، وكمال منشود. لأنه "ليس من المعقول أن يمارس الانسان نشاطا لكي يكسب الفضيلة لو كانت النفس الانسانية ذات طبيعة كاملة مكملة، أو إذا كانت هذه الطبيعة بالرغم مما فيها من نقص، غير قادرة على التطور. فضرورة تدخلنا المؤثر تنطوي على مسلّم مزدوج؛ هو أن الكائن الأخلاقي قد خلق ناقصاً، وقابلا للكمال في آن"[71]. وهذا النقصان يجعل الفعل الأخلاقي بذرة كامنة بالقوة، وشروط كامنة، تنتظر فعلا إنسانيا إراديا حرا، يحولها من حالة الكمون إلى حالة الواقع الفعلي بتحقيق شروطها.

فإذا كانت هذه حالة الكائن الأخلاقي، فإن ذلك ما يبدو – حسب دراز- أن القرآن قد دل عليه بوضوح[72].وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر في آيات عديدة منها [لا يكلف الله نفسا اِلا وسعها] (البقرة: 285) [لا نكلف نفسا اِلا وسعها" (الانعام: 153)؛ "لا يكلف الله نفسا اِلا ما ءاتاها] (الطلاق: 7).

والقرآن أيضا يعلمنا أن الإنسان –من ناحية- قد يولد محروما من جميع المعارف العقلية والحسية، فإنه قد زُوِّدَ بملكات قادرة على ان تقدم له ما يتمنى من هذه المعارف: وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] (النحل: 78). ومتى ما صاغ الله نفس الانسان وسواها استودعها فكرتي الخير والشر، التي هي لب الفعل الأخلاقي والموقف الأخلاقي: وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا 5 وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا 6 وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] (الشمس: 7-10).

فتلك هي مجموع الوسائل التي تتصرف فيها الانسانية، وبفضلها تستطيع تصور المثل الأعلى الساعية إليه، والراغبة في بلوغه، وأن تلتزم بتحقيقه بذاتها. ومن ثم تنبع الضرورة الأخلاقية، ان يعمل الانسان، وأن يتحمل مسؤوليته:[وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] (التوبة: 105)[73].

---

[70] دراز، دستور الأخلاق، ص585.

[71] راز، دستور الأخلاق، ص585.

[72] دراز، دستور الأخلاق، ص 586.

[73]دراز، دستور الأخلاق، ص 586.

ويعقب دراز على هذه الآيات بقوله ان الجهد هنا عضوي مادي، ولكن ايضا يستلزم جهدا آخر ما فوق الجهد الطبيعي، يقتضيه العقل، ويجب ان يسخر لخدمة المثل الأعلى. وهذا هو الجهد الذي اهتم به دراز ضمن نظريته في الأخلاق[74].

ودون تفصيل أكثر، نختم هذه العناصر المؤسسة للنظرية الأخلاقية، كما حاول دراز ان يستخرجها من آيات القرآن الكريم، كاملة، مستوفية كل العناصر الضرورية كيما تتكون لدينا فكرة دقيقة عن الطريقة التي ينبغي أن تتصور بها معنى الأخلاق: من أين تأتي القاعدة الأخلاقية؟ وبأي الشروط تفرض نفسها؟ وما النتائج التي تترتب على موقفنا منها؟ وما المبدأ الذي يجب أن يلهم سلوكنا؟ وبأية وسيلة تنال الفضيلة؟

فالإلزام، والمسؤولية، والنية، والجهد، هي الأعمدة الرئيسية لكل نظرية أخلاقية، واعية بمراميها، قام دراز بدراستها في القرآن الكريم، وتشكل الأجزاء التكوينية للنظرية الأخلاقية[75]..

المبحث الثالث: صياغة النظرية القرآنية عند دراز : تأصيل ومثاقفة وإبداع.

إن ما تناولناه في المبحثين السابقين، يجعلنا نخرج بتصور للنظرية الأخلاقية القرآنية التي قدمها دراز، بعد أن قام بعمل تقييمي للبحث الأخلاقي في الفكر الاسلامي، ورأى أن البحث الأخلاقي كانت تتقاسمه مقاربات جزئية لم ترتق به إلى نظرية كلية تحقق مقاصد القرآن في النظر الأخلاقي.

ولهذا يواجهنا سؤالان مهمان؛ أحدهما هو: إلى أي مدى وظف دراز مفاهيم النظرية الأخلاقية الحديثة في صياغته لنظرية في الأخلاق القرآنية كنوع من المثاقفة الإيجابية مع الفكر الغربي الحديث؟ وأما الثاني فهو: ما هي الاضافة النوعية التي قدمها دراز للفكر الأخلاقي الحديث في سياقه العربي الاسلامي وفي سياقه العالمي ليمثل إضافة إلى الفكر الأخلاقي الانساني؟.

1. عمل تركيبي: ثمرة أصالة ومثاقفة:

يقول عنه صهره وتلميذه الدكتور السيد محمد بدوي، أن الشيخ دراز لما ذهب للسوربون لم يشأ أن يبدأ الدراسة الجامعة العليا مباشرة، ولكنه "التحق بالسوربون للتحضير لدرجة الليسانس، ودرس الفلسفة، والمنطق، والأخلاق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، على أيدي اساتذة السوربون والكوليج دي فرانس من أمثال ماسينيون، وليفي بروفنسال، ولوسن، وفالون، وفوكونيه"[76].

ولذلك فإن بدوي يشير إلى أثر هذا التكوين العلمي الرصين في رسالته، حيث "لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الاسلامية، بل كان يجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة، وكان لا يترك مناسبة إلا

---

[74] دراز، دستور الأخلاق، ص587.

[75] دراز، دستور الأخلاق، ص675.

[76] من مقدمة الدكتور السيد محمد بدوي لكتاب دستور الأخلاق في القرآن للشيخ دراز. أنظر: محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، مراجعة: السيد محمد بدوي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط11، 1426هـ/2005م)، ص ح.

استعرض فيها رأي عالم من علماء الغرب، أو نظرية من النظريات السائدة، ثم يبيّن ما في هذه النظرية أو في ذلك الرأي من قصور أو خطأ، ويعقب ذلك بيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم"[77].

وكما يذكر أحد الباحثين، فإن دراز كان "ابن الأزهر، وابن السوربون" كما وسمه العلامة القرضاوي. وقد أتاحت له الدراسة المعمَّقة لكلٍّ من الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية من منابعهما الأصلية بناء رؤية تركيبية تحليلية فريدة، بعيدا عن السطحية التبسيطية، وعن "سوء الهضم العقلي" الذي أصاب الكثيرين ممن وقفوا عند حدود الثقافة الموروثة الراكدة أو الغريبة الوافدة. كان متعمقا في روحانيات الغزالي والحكيم الترمذي وأبي طالب المكي، متضلعا بفلسفة "ديكارت" و"كانت" و"برجسون". وقد امتاز دراز بفضل هذا الفكر التركيبي برحابة الأفق، وعمق التحليل، ودقة الاستدلال، مع حجاج مقنع، وبلاغة ساحرة استمدَّها من بلاغة القرآن الكريم.[78]

ويمكن ملاحظة ذلك بمطالعة كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" حيث تحضر كل النظريات والمفاهيم الأخلاقية القديمة والحديثة، وكذلك الفلاسفة والأخلاقيين قديما وحديثا ممن كان لهم مساهمة في البحث الأخلاقي. وقد كان القرآن دائما نقطة ارتكازه، ويعتمد في استخلاصه الاجابة الشافية على المسائل المطروحة اعتمادا مباشراً على النصوص القرآنية[79].فكان ما قدمه فلسفة أخلاقية تنطلق من القرآن، تنظر للأخلاق انطلاقا من القرآن، كما أنها تهتم ببيان النقد الذي يوجه إلى النظريات والآراء المختلفة، ثم يحاول إيجاد حلول لها[80].

2. استعادة مركزية القرآن في البحث الأخلاقي:

لعل أهم إضافة قدمها دراز في الدرس الأخلاقي الاسلامي هي استعادة مركزية القرآن في صياغة النظرية الأخلاقية. واستعادة مركزية القرآن في تحديد تصوراتنا ومفاهيمنا المركزية، وبخاصة ما يتعلق بفهمنا للدين والقيم والأخلاق، حتى لا نقع في فهم اختزالي أو مشوه أو متناقض، إعمالا لحديث "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله"[81]، ونعمل على حماية فهمنا الديني ووعينا الإسلامي من انتحالات المبطلين، وتأويلات الجاهلين، وتحريفات الغالين[82]

كما أنه جعل من القرآن مصدرا الإسلام لتشكيل التصورات والمفاهيم والقيم كليها وجزئيها، ومنبعا للمسلم في بناء مفاهيمه ومناهجه في الدين والعلم والحياة، ومنبع استمداد لا ينضب لدراسة مختلف الظواهر والقضايا والأفكار والأحداث.

---

[77] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[78] مُحَمَّد مختار الشنقيطي، مُحَمَّد عبد الله دراز.. عاشق القرآن الكريم. أنظر: http://www.4nahda.com/node/673.(08/02/2017)

[79] دراز، دستور الأخلاق، من مقدمة بدوي، ص ي ا.

[80] جمال نصار، مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي، ط1، (المنصورة: دار الوفاء، 1425هـ/2004م)، ص12

[81] أخرجه ابن القيم وذكر له طرقا عديدة. أنظر: مُحَمَّد بن ابي بكر بن القيم، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج1/ ص163.

[82] بدران بن لحسن، "الدين سنة كونية وثابت من ثوابت التاريخ الإنساني"، جريدة العرب القطرية، الجمعة، 23 أكتوبر 2015.

وكأني به يذهب إلى ما ذهب إليه ابن عاشور في أن القرآن "جامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسِّره"[83].

فهو كتاب يستمد منه الكليات في التشريع وفي العلم والأخلاق، وبتدبره نولد منه نماذج معرفية ومنهجية وعملية.فهو ليس كتابا دينيا بالمفهوم الضيق للدين، وإنما هو كتاب هداية ورحمة وتبيان لكل شيء. ذلك أنه منبع للمعاني والمفاهيم والتصورات، والقيم والآداب، والأحكام والقصص، ومقاصده شاملة لمختلف جوانب الفكر والعمل، ومبثوثة في كل آياته[84].

وينبغي أن يأخذ القرآن مركز الاهتمام والاشتغال في تشكيل التصورات، وتحديد الرؤية، وبناء المناهج والمفاهيم، وفي مباشرة عملية التجديد الفكري والعلمي، والإصلاح التربوي والاجتماعي، بغية "التوصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن"[85].

وعندما يتعامل المسلم مع القرآن تعاملاً حسناً، فإنه يصل إلى فهم حسن للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان في كل مكان؛ قضية الخالق سبحانه، والخلق والكون والحياة والهدف منها، ودور الإنسان في هذه الحياة، ومصيره بعدها، ويصل المسلم أيضا إلى فهم حسن للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر[86].

إن القرآن الذي نـزل إلى العالمين على امتداد الزمان والمكان، لابد وأن يبقى مفتوحاً للأجيال تنهل منه على اختلاف بيئاتها وأزمانها، وإن من الأخطاء الكبيرة وبدايات الانحراف في الفهم والاستمداد، أن نعمد إلى محاصرة الوحي بأفهامنا، فلا نسمح له بالامتداد إلا بمقدار ما تسمح به عقولنا ومداركنا، فنحرم عقولا أخرى من حظها في الفهم، ونصادر حقها في الرأي والاجتهاد[87].

وعلينا أن نعمل على أن يسترجع القرآن مكانه؛ تدبراً وتفكراً واستنباطاً واستقراءً، وذلك يمثل استدعاءً للقرآن العظيم للساحة الثقافية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، وفي قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم[88].

---

[83] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997م)، ج1/ ص5.

[84] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص8.

[85] محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها: عمر عبيد حسنة، ط1، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1411هـ/ 1991م)، ص3. من تصدير طه جابر العلواني.

[86] صلاح إسماعيل، كيف نتعامل مع القرآن والسنة، في نصر محمد عارف، قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي المعاصر 16، 1418هـ/1987م)، ص81.

[87] سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2007م)، ص11.

[88] الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص1. من تصدير طه جابر العلواني.

فالقرآن "أنـزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم. قال الله تعالى: [ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين] (النحل:89). فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"[89].

ومعرفيا ومنهجيا، ينبغي أن نفك الارتباط بين القرآن وبين بعض المحاولات التي أغرقته في تصورات لاهوتية كلامية، جعلت منه كتاباً طقوسياً بعيداً عن صياغة الحياة، لنسترجع المبادرة بالقرآن ونستدعيه لصياغة تصور جديد، هذا التصور هو عدّه أن مدار مقاصد القرآن هو الإنسان وصلاح الإنسان.

إن كل شؤون الإنسان يشملها القرآن باستيعابه الشامل لمختلف دوائر حياة الإنسان، ولمختلف أبعاد شخصيته. وعليه، فإننا بتأملنا لمختلف الدوائر والأبعاد ندرك أن القرآن يكون منبعا لنا في تأسيس مختلف المعارف المتعلقة بصلاح الإنسان؛ فردا وجماعة وعمرانا.

وهذا يجعل من القرآن مركزيا ومهيمنا في التأسيس لعلم العقيدة، وعلم الأخلاق، وعلم الأدب وتهذيب النفوس، ومناهج التفكير، وعلم النفس، وعلم الشعائر أو العبادات، وعلم المعاملات، ويعبر عنه عندالحكماء بالسياسة المدنية[90]، وفي تأسيس الفقه الجماعي، أو فقه الشؤون العامة التي تهتم بالوجود الاجتماعي للفرد في وسط جماعة؛ أي فقه الشأن العام[91]، وعلم العمران وعلم الاجتماع[92].

وهذا بدوره يجعل من القرآن منبعا للعلوم الاجتماعية والعمرانية، ومختلف حقول المعرفة التي تؤسس للتحضر الإنساني والعمران البشري. وهو تأكيد للخط الخلدوني في التركيز على فقه العمران والاجتماع، وتأسيس مهم للبحث الاجتماعي على أسس قرآنية تستدعي القرآن مؤسسا وموجها للنظر الاجتماعي.

فصلاح الإنسان في دوائره الفردية والجماعية والعمرانية هو مقصد القرآن الأعلى. وهذا الفهم للقرآن والنظر إليه بهذه المركزية وهذه الشمولية يجعل من القرآن مرجعا يستقى منه، لا مرجعا للتبرير للآراء الجزئية، ويجعلنا نفتقر إلى القرآن ليعطينها من جواهره المكنونة ويحدد لنا المقاصد التي في ضوئها نجتهد ونعمل، ولا يفتقر إلينا القرآن للاحتجاج لها والبرهنة على صحته من خلال ما أنجزه الإنسان، أو نجعل منه مرجع تسويغ لآرائنا ومقاصدنا بعد أن نكون قد حددنها بعيدا عن القرآن.

ولذلك على من أراد فهم القرآن وتفسيره والأخذ منه أن يخضع للقرآن ومقاصده، ليستطيع أن ينتفع به، لا أن يحدد مقاصد لنفسه، ثم يأتي للقرآن طالباً التبرير له، فيقع في التجزيء.

---

[89] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص38.

[90] ابن عاشور، المصدر نفسه.

[91] عبد الحميد أبو سليمان،أزمة العقل المسلم، ط3، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1414هـ/ 1994م)، ص76-83.

[92] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص38.

ولهذا، فإن على متدبر القرآن – كما يذكر العلامة ابن عاشور- أن "يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن"[93]، التي توجه منهجيا التأسيس لعلوم ومعارف يتوسل بها إلى تحقيق المقصد الأعلى، وتشكل المحاور الكبرى التي تحوي مختلف المعارف التي تأتي من فيض القرآن وتتصل به من قريب أو من بعيد.

وهذا ما يؤكد على صلة مختلف العلوم بالقرآن الكريم؛ ذلك أنه ليس كتابا للعلوم بالمعنى الأكاديمي، وإنما القرآن ينظم علاقته بالعلوم في مستويات أربعة؛ فمنها ما هو مستمد مباشرة من القرآن كتاريخ الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة، ومنها علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات، ومنها علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق، ومنها علوم لا علاقة لها بالقرآن إما لبطلانها كالميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته[94].

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية شاملة. فالقرآن يقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، مما يجعلها ذات أصول مشتركة وتتجه إلى تحقيق أهداف متضافرة. ذلك أن التشظي المشهود في المعرفة في العالم الإسلامي والإشكالات المتعددة ناتجة عن استبعاد القرآن الكريم عن مسار الإنتاج المعرفي وعن هيمنته على إنتاج المعرفة.

ولذلك يجب أن يكون القرآن المصدر الأعلى ويكون معيار صواب الآراء والأفكار، والمصدر الرئيس للقواعد الثابتة لجميع المعارف، وجميع مناشط الإنسان لتحقيق الهداية والاستخلاف، والناظم لمختلف أفرع المعرفة.

خاتمة: استثمار نظرية دراز في تحقيق الكلي:

فإن ما يمكن أن نختم به هذه الورقة البحثية هو التساؤل عن كيف يمكن استثمار اجتهادات دراز وتعميقها لتحقيق نظرة أخلاقية كلية لقضايانا وتجاوز التناول الجزئي للأخلاق في واقعنا؟

ويمكننا القول إن دراسة الأخلاق من خلال القرآن تمثل مدخلاً أساسياً في فهم النظرية الأخلاقية في الإسلام، وبالتالي فهم كثير من المشكلات التي تحول بين المسلمين وبين تمثل تلك الأخلاق. فهي أخلاق متكاملة ولا بد من التعامل معها ككل.

كما تمثل دراسة الأخلاق عند دراز في كتابه هذا أول "تفسير موضوعي" للقرآن الكريم قام به المسلمون في العصر الحديث، حيث ينظر في القرآن عن الآيات المتعلقة بموضوع واحد ويفسرها في ضوء بعضها البعض، وينظر إليها نظرة تكاملية، بما تكونه من شبكة مفاهيم، ونظرية كلية، لا تهمل الإطار الكلي، ولا تهمل القضايا الجزئية.

---

[93] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص39.

[94] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص45.

وتمثل دراسة الدكتور دراز كذلك نقلة نوعية في دراسة الأخلاق في الإسلام، لكنها التبست بمداخل الفلسفة الأخلاقية الحديثة – كما يقول حللي- وفرضت المقارنة عليه الانطلاق في التأصيل من مصطلحات غير قرآنية في بعض الأحيان.

ولعل الدكتور دراز كان يطمح أن يقوم بعمل من هذا النوع، أعني أن تكون دراسته قرآنية بحتة، لكن شروط البحث الجامعي اقتضت منه المقارنة كما أشار في مقدمة دراسته، التي هي في أصلها مقدمة كرسالة اكاديمية لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، بجامعة السوربون.